الزهدية المغربية

مظاهرها الموضوعية وخصائصها الفنية

د. العيد جلولي
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

الزهدية فن تعبيري جديد جاء ليعبر عن مشاغل جيل شب مقدسا لتعاليم القرآن متخلقا بأخلاق الإسلام ، ولم يظهر هذا الفن في الأدب العربي كغرض قائم بذاته إلا في القرن الثاني الهجري، أما قبل هذا فكان الزهد ومظاهره يرد مبثوثا في ثنايا القصائد، وما ذهب إليه كارلو نالينو من ان الزهد من موضوعات الشعر الجاهلي مستشهدا بما بقي من شعر عدي بن زيد العبادي الأنصاري فأمر مردود[1] فمعظم الدارسين لهذا الموضوع خالفوه الرأي ومن هؤلاء الدكتور محمد المختار العبيدي الذي يقول : "ونحن نخالفه فيما ذهب إليه لأن ما بقي من الشعر عدي قليل لا يمكن الإنطلاق منه لتقديم حكم صارم في موضوع الزهد، ولأن هذا القليل المتبقي لا يدل على ان للشاعر مذهبا في الحياة قائما على الخوف من المصير والرضا بالمقادير والتفكير باستمرار في الموت قصد الاتعاظ والاعتبار "[2] ، ومنهم أيضا الدكتور عبد القادر هني الذي يقول : " إنه لمن قبيل الحديث المكرور أن نعود إلى تفنيد فكرة كارلو نالينو الذي ذهب إلى ان الزهد كان غرضا من أغراض الشعر الجاهلي بعد إن استوقفت هذه الفكرة بعض الدارسين فبينوا أن ما رآه نالينو زهدا في شعر عدي ابن زيد لا يعدو ان يكون حديثا ساذجا عن فكرة زوال الناس وتغير الأزمان والأحوال"[3] .

وفي القرن الثاني الهجري قوي تيار الزهد في المشرق واكتملت عناصر الزهدية بفضل أساطين شعراء الزهد أمثال صالح ابن عبد القدوس ، وعبد الله بن مبارك ، وأبي العتاهية ، ومحمد بن الحسين الوراق وغيرهم ...

ونستنتج مما سبق أن شعر الزهد في المشرق مر بمرحلتين ، المرحلة الأولى لا تتجاوز في الزمن القرن الأول الهجري سماها بعض الدارسين بمرحلة الظهور والنشأة أو مرحلة الإرهاص والتكون ، وفيها كان شعر الزهد ضعيفا ومحتشما ، والمرحلة الثانية وتبدأ مع القرن الثاني الهجري

وهي مرحلة النضج والاكتمال وفيها قوي شعر الزهد وانتهى إلى ظهور فن جديد سمي بالزهدية ، وظهر شعراء كبار أوقفوا شعرهم على الزهد وحده دون غيره من الأغراض[4] .

الزهدية المغربية :

الحقيقة أنه من الصعوبة البالغة محاولة تحديد فترة زمنية معينة لبداية هذا اللون من التعبير الشعري في الأدب المغربي القديم، وهذا راجع لضياع المصادر المغربية المبكرة ، ولعل أقدم النماذج لشعر الزهد تعود إلى القرن الثاني الهجري الأمر الذي دفع بعض الدارسين إلى القول بأن شعر الزهد ظهر بالمغرب دفعة واحدة على خلاف ما رأينا في المشرق، وأرجع ذلك إلى جملة من الافتراضات منها:

– تحمس المغاربة للدين الجديد وإقبالهم على القرآن حفظا ودراسة ، وتأثرهم بالمبادئ الدينية التي غرسها فيهم جيل من التابعين وفدوا على المغرب في خلافة عمر بن عبد العزيز لتعليم الناس أمور الدين .

– إقتداء الشعراء بسلوك السلف الصالح والأخذ ببعض المفاهيم الإسلامية كالصبر والقناعة والإقرار بضعف الإنسان .

– تأثر بشعر الزهد المشرقي خصوصا أشعار ابن المبارك ، وصالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية والنسج على منوالهم .

– ما وجدته الزهدية من صدى طيب في النفوس باعتبارها نمطا مستحدثا من أنماط العبارة الشعرية .

– الحروب الطاحنة التي شهدها المغرب طوال تاريخه وهي حروب خلفت وراءها مآسي كثيرة ودفعت الشعراء إلى النظم في شعر الزهد .

– انتقال تيارات الزهد ومدارسه من المشرق إلى المغرب خصوصا تلك التيارات التي راجت في إقليم العراق[5] .

مضامين الزهدية المغربية

أخذ كثير من المسلمين في صدر الإسلام أنفسهم بالزهد في الدنيا تأسيا بحياة النبي صلى الله عليه وسلم منطلقين من قوله: "أزهد في الدنيا يحبك الله،وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس"، وتأسيا أيضا بحياة الصحابة والتابعين فهذا علي بن أبي طالب –كرم الله وجه– يقول لأتباعه :"وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعي بكم ، إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، ويشتد حزنهم وإن فرحوا ، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا"[6] ، وكان

أبو ذر الغفاري الساخط على الأغنياء، وحذيفة ابن اليمان الذي كان أول من تكلم في القلوب وآفاتها ، وسلمان الفارسي وعبيدة ابن الجراح من الصحابة الزهاد.

فالزهد في حد ذاته قيمة من قيم الإسلام غير أن انتشار الفتوحات العربية، واتساع الرقعة الإسلامية أدى إلى اختلاط العرب بشعوب البلاد المفتوحة، فامتزجت ثقافتهم بثقافة هؤلاء فتسرب إلى زهدهم الإسلامي شيء من روحانيات الشرق ، وشيء من زهد الأديان الأخرى ولا سيما المسيحية في العراق والشام ومصر .

لهذا كله قامت الزهدية على مجموعة من المضامين الدينية والفلسفية والتأملية، ومزجت بين الترغيب والترهيب، الترغيب في الآخرة وما فيها من خير وحسنات، والترهيب من الدنيا وما فيها من شرور وآفات، كما دعت الزهدية إلى مكارم الأخلاق وركزت على ذكر الموت والاستعداد له وذكر أهوان القبر والحث على طاعة الله.

وقد تتضمن الزهدية الواحدة كل هذه المعاني دفعة واحدة ، وقد تنفرد بمعنى واحد كذكر الموت أو ذم الدنيا أو الدعوة إلى خلق كريم كالصبر والقناعة والتقوى وغيرها من المعاني .

والمعاني المذكورة قواسم مشتركة بين الزهدية في المشرق أو المغرب، فلم تستقل الزهدية المغربية بمعان خاصة، ولم تنفرد بمضامين متميزة وهذا يدل على أن الشعر المغربي بصفة عامة جزء من الشعر العربي وفرع منه، وان الشاعر المغربي ينهل معانيه ومضامينه من المنهل نفسه الذي ينهل منه الشاعر المشرقي وهذا المنهل المشترك هو القرآن الكريم "فلم يبتدع الزهاد من المعاني شيئا " وإنما قراءتهم للقرآن بإستمرار وتشبعهم بتعاليمه ومبادئه واعتبارهم بأحكامه ومواعظه هو الذي أعانهم على تمثل هذه المعاني والالتزام بها في نصوصهم الشعرية[7].

غير أن المتتبع للزهدية المغربية يلحظ أن المغاربة أكثر من موضوع الموت وذكره وهول القبر وعذابه أكثر من غيرهم منطلقين من قوله تعالى :[أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة] [8] ، ومن قوله أيضا :[كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور] [9] وغيرها من الآيات.

فذكر الموت والاعتبار بالأقوام الذين بادوا وزالوا وأفناهم الدهر من المضامين التي شكلت غالبية شعر الزهد المغربي فقلما ترد زهدية دون هذه المضامين .

ويأتي بكر بن حماد التيهرتي في طليعة هؤلاء الذين أكثروا في زهدياتهم من ذكر الموت والاعتبار بالأمم الزائلة والأقوام البائدة ففي رثاء تيهرت بعد تخريبها يقول :

زرنا منازل قوم لم يزورونا إنا لفي غفلة عما يقاسونا

لو ينطوقون لقالوا الزاد ويحكم حل الرحيل فما يرجو المقيمونا
الموت اجحف بالدنيا فخربها وفعلنا فعل قوم لا يموتونا
فالآن فأبكوا فقد حق البكاء لكم فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها لو كان جمع فيها كنز قارونا[10]

ويقول أيضا في ذكر حتمية الموت وهو القبر وزيف نعيم الدنيا :

أين البقاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حماد
بينا ترى المرء في لهو وفي لعب حتى تراه على نعش
هذا يباكر دنياه منغصة فيها حزازات أحشاء وأكباد
فكلنا واقف منها على سفر وكلنا ظاعن يحدو به الحادي
في كل يوم نرى نعشا نشيعه فرائح فارق الأحباب أزغاك
الموت يهدم ما تبنـــيه من بذخ فما انتظارك يابكر بن حماد[11]

وله زهدية أخرى بذكر فيها بمن رحل من الأنبياء والرسل ويدعو فيها إلى الاعتبار :

نهار مشرق وظلام ليل ألحا بالبياض والبسواد
هما هدما دعائم عمر نوح ولقمان وشداد وعاد
فيا بكر بن حماد تعجب لقوم سافروا من غير زاد
تبينت على فراشك مطمئنا كأنك قد أهنت من المعاد
فيا سبحان من رأسي الرواسي وأوتدها مع السبع الشداد [12]

وفي معظم قصائده الزهدية يخاطب بكر بن حماد نفسه فيتحول الشاعر إلى متلف لقصائده فهي بذلك تعبير صادق عما يحتلج في نفسه ، ومحاسبة قاسية لذاته ، فالنفس لا يردعها إلا هذا الخطاب المنبعث من أعماق الذات الذي يذكرها في كل مرة بالموت وأوجاعه والقبر وأهواله فيقول :

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي من جنح ليل يقودها وضوع نهار لا يزال يسوقها
إلى مشهد لا بد لي من شهوده ومن جرع للموت سوف أذوقها
ستأكلها الديدان في باطن الثرى ويذهب عنها طيبها وخلوقها
مواطن للقصاص فيها مظالم تؤذي إلى أهل الحقوق حقوقها

سحاب المنايا كل يوم مظلة فقد هطلت حولي ولاح بروقها
وللنفس حاجات تروح وتغتدي ولكن احاديث الزمان تعوقها
تجهمت خمسا بعد سبعين حجة ودام غروب الشمس وشروقها
وأيدي المنايا كل يوم وليلة إذا فتقت لا يستطاعرتوقها
تصبح أقواما على حين غـــفلة ويأتيك في حين البيات طروقها[13]

ومن مضامين الزهدية المغربية ذكر الشيب والشباب وما يطرأ على الإنسان من تحول وتغير وتبذل وكل ذلك مدعاة إلى التأمل في الدنيا والزهد فيها، فالشيب مقدمة للفناء والزوال يقول محمد ابن يوسف الثغري :

أقصر فإن نذير الشيب وافاني وأنكرتني الغواني بعد عرفان
وقد تماديت في غي بلا رشد والنفس تأمرني والشيب ينهاني
كم من خطى في الخطايا قد خطوت ولم تراقب الله في سر وإعلان
فلا تغرنك الدنيا بزخـــــرفها فيا نـدامة من يغتر بالفاني[14]

فمن اللافت للنظر أن جل الشعراء المغاربة يمدحون الشيب فهل يعد هذا خروجا عن المألوف وشذوذا عن المعهود أم مجرد محاولة للتوافق – من الوجهة النفسية – مع مرحلة جديدة من مراحل العمر ، ففي الخريدة للعماد الأصفهاني نعثر على نماذج طريفة ومعان لطيفة لهذا اللون من الشعر ومن نماذجه قول محمد بن الحسن الطوبي يخاطب من بكى على ذهاب شبابه :

يا باكيا للشباب إذا ذهبا بكيت في أثر غادر هربا
الشيب أوفى مـــــنه بذمته هل فارق الشيب قـط من صحبا[15]

وقوله أيضا :

بكى الشباب رجال بئس ما صنعو والشيب أفضل في التحصيل والنظري
إن الشـــباب كليل ضل مسلكه والشيب كالصبح يهدي العين للأثر[16]

ومع كثرة من مدحوا الشيب بمثل هذه المعاني الطريفة نجد في مقابل ذلك من ذم الشيب وعدد مساوئه ومن نماذجه ما ورد في الحلة السيراء ، فقد جرى ذكر الشيب وذمه في مجلس للأمير عبد الله – وكان يكره الشيب – فسأل عن أحسن ما يروى في هذا الباب، فقال له أبو الأصبغ موسى إبن محمد : أحسن ما قيل فيه عندي قول الأول :

أقول لضيف الشيب إذ حل مفرقي نصيب منكي جفوة وقطوب
حرام علينا ان تنالك عندنا كرامة بر أو يمسك طيب

فأستحسن الأمير عبد الله البيتين وأمر أبا الأصبغ أن يزيد فيهما ، فزاد عليهما أبو الأصبغ في المجلس نفسه أبياتا هي :

فيا شر ضيف حل بي وحلوله	يخبرني أن الممات قريب
وان جديد كل يوم إلى بلى	وإني من ثوب الشباب سليب
فما طيب عيش المرء إلا شبابه	وليس إذا ما بان عنه يطيب
سأقريك يا ضيف المشيب قرى القلى	فما لك عندي في سواه نصيب

ومن مضامين الزهدية المغربية وصف تجارب حياتية معينة كأن تحدث للشاعر حادثة ما فتكون تلك الحادثة دافعا للتأمل والتذكر والتزهد ومن احسن النماذج في هذا الباب قصيدة المنفرجة لأبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المشهور بابن النحوي الطوزري(ت513هـ) وهي قصيدة ذائعة الصيت في الأدب العربي كله ومطلعها :

اشتدي أزمة تنفرجي	قد آذن ليلكي بالبلج[17]

نظمها الشاعر عند شدة نزلت به، ولما نظمها وابتهل إلى الله متضرعا في تهجده أقشعت.

الخصائص الفنية للزهدية المغربية

سبق القول أن الزهدية المغربية تناولت الموضوعات نفسها التي تناولتها الزهدية المشرقية فإن تميزت بشيء فإنها أكثرت من موضوع الموت وذكره ، والقبر وتعداد أهواله مستخدم أسلوب الترغيب والترهيب وسيلة لبلوغ غاياتها وتحقيق مراميها .

ويستطيع الدارس أن يستخلص من الزهدية المغربية مجموعة من الخصائص الفنية مجملها فيما يلي :

1- التناص القرآني

سبق القول أن الزهدية المغربية استقلت معانيها من القرآن الكريم واستهلت مضامينها منه ، فاستخدمت أسلوبه الوعظي، وطرائقه في البيان فتضمنت نصوصا منه وهذا أمر ضروري في الزهدية لحاجتها للإقناع والتأثير خصوصا إذا كان الكلام المقتبس يمثل مكانة مقدسة فيتحول هذا الكلام إلى أداة وغاية في الوقت نفسه ، ومن مظاهر هذا التناص القرآني اقتباس الفواصل القرآنية لتكون في عجز البيت وضربه فيكون لهذا البيت ما كان للآية من تأثير وتحلية وسهولة حفظ كقول أحمد بن أبي سليمان (ت291هـ)

فويل للشقي إذا تردى وصار إلى التي ساءت مصيرا

فعبارة "ساءت مصيرا" مأخوذة من قوله تعالى :[فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا][18]

ومن التناص القرآني اقتباس الآيات أو جزء منها لتكون في عجزه كقول الشاعر بكر بن حماد :

تمر الليالي بالنفوس سريعة ويبدي ربي خلقه ويعيد[19]

فعبارة "ويبدي ربي خلقه ويعيد" مأخوذة من قوله تعالى : [إنه هو يبدئ ويعيد][20] .

ومن التناص القرآني أيضا اقتباس الآيات أو جزء منها لتكون هذه المرة في صدر البيت لا في عجز البيت وهو موضع لا يقل أهمية على عجز البيت ، ومنه قول بكر بن حماد :

قوم تقطعت الأسباب بينهم من الوصال وصاروا تحت أوطاد [21]

في عبارة "قوم تقطعت السباب بينهم "

مأخوذة من قوله تعالى : [ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب] [22].

2- التعابير الحكمية :

الحكمة تعبير بليغ موجز عن تجارب الشعوب والأمم ، وهي خلاصة رؤيتهم للكون والحياة والناس، وقد وظف الشعراء منذ القديم الحكمة "كقوالب جاهزة في أشعارهم ونصوصهم النثرية اختصارا وتعبيرا عن الحقائق الخالدة ورغبة في شد انتباه السامع وإقناعه بما لا يحتمل التكذيب ، وان اعتمد الشعر بصفة عامة على التعابير الحكمية للغايات التي ذكرنا ، فإن اعتماد الزهدية بصفة خاصة أوكد وأوجب ، فهي أحوج ما تكون إلى ضرب الأمثال والتعلل بالحكم لإقناع السامع بجملة من المبادئ والقيم والتأثير فيه بحمله على التوبة والاعتبار " [23] .

وتزخر الزهدية المغربية بالتعابير الحكمية حتى شكلت ظاهرة جديرة بالبحث والدراسة ، فلا تكاد تخلو زهدية مغربية من الحكمة ، وربما أسرف بعضهم في توظيفها حتى غدت الزهدية كلها حكم وأمثال وشواهد، وربما أيضا كانت بعض الحكم من قبيل الحكم المستهلكة المجترة .

ومن الشعراء الذي أكثروا من الحكمة في زهدياتهم الشاعر أبي حفص الفاسي يقول في إحدى زهدياته :

والمال يبذل في الأعراض تالده فلا تتله بعرض فيه مبتذل

والماجد الفخم لا ينفك معتقلا رمح الإيباية من سوء ومن خطل

ومورث العز رب العز اجمعه فالعز بالله لا بالمال والحول

والأنس بالله لا بالناس قاطبة والنصر بالله لا بالبيض والأسل
والحر يستف ترب الأرض محتملا وليس للمن من كعب بمختمل[24]

وكذلك الشاعر محمد بن الطالب اليعقوبي الشنقيطي :

وراع حدود الله لا تتعداها وصغر وعظم ما أهان وعظما
وراع حقوق الضيف والجار إنه لا عمرك اوصى أن يبر ويكرما
وإن جهل الجهال فأحلم وربما يكون عليك العار أن تتحلما
وما اليمن إلا البر والعدل والتقى وما الشؤم إلا أن تخون وتأثما[25]

3- توظيف الصور والأخيلة المستحدثة:

والمتتبع للزهدية المغربية يلحظ أن الشعراء المغاربة يستقون معانيهم من معاني الأقدمين ويقتبسون منهم الصور والأخيلة، لكنهم لا يقفون عند هذا المأثور ، وربما يضيفون إليه معان وصورا جديدة مستحدثة فيها جدة وطرفة، من ذلك نسبة الوفاء للشيب والغدر بالشباب في معرض حديثهم عن الشيب والشباب فهذا ابن رشيق القيرواني يقول :

أراك للشيب ذا اكتئاب فأي ن تمضي عن الصواب
إن كنت ترعى الوفاء حقا فالشيب أوفى من الشباب[26]

ونجد المعنى نفسه عند محمد ابن الحسن الطوبي في قوله :

يا باكيا للشباب إذا ذهبا بكيت في أثر غادر هربا
الشيب أوفى منه بذمته هل فارق الشيب قط من صحبا[27]

أو تشبيه الشباب بالليل وما في الليل من ظلمة وحلكة ، وتشبيه الشيب بالصباح وما في الصباح من نور كقول الشاعر نفسه :

إن الشباب كليل ضل مسلكه والشيب كالصبح يهدي العين للأثر[28]

تيارات شعر الزهد المغربي :

والمتتبع لشعر الزهد المغربي يلحظ وجود تيارين عبر من خلالهما الشعراء المغاربة عن رؤيتهم للكون والحياة والناس ، تيار سلبي ، وآخر إيجابي .

أما التيار السلبي فينظر أصحابه إلى الحياة نظرة سوداوية متشائمة تقف من الناس موقفا عدائيا كقول المكودي :

هذه هي الدنيا فلا يغررك ما تراه فيها من سرور وهنا
فانفض يديك من عراها وارمها وادرأ بها إن كنت من أهل النهى
وظن بالإخوان شرا واخشهم وصير الأحباب منهم كالعدا
وإن جهلت حالهم فأخبر فما يخبر قوما أحد إلا قلى
وسرك أكتمه عن الخلق ولا تطلع عليه أحدا من الورى
واقنع على عز بما يكفي ولا تحرص فإن الحرص ذل للفتى[29]

وهناك من الزهاد من فضل الاعتكاف والعزلة بعيدا عن الناس في انتظار الموت الذي يخلصه من شرور الدنيا على نحو ما قام به الزاهد واصل ابن عبد الله اللخمي الذي يقال انه ظل أياما ملازما القبلة حتى ضعف ضعفا شديدا[30] .

وأما التيار الثاني فهو إيجابي يقوم على رؤية إسلامية للكون والحياة والناس ، ويسخر الزهد والتقوى في خدمة الأمة، وهذا ما فعله أولئك الزهاد الذين فضلوا الإقامة في الثغور في رباطات خاصة دفاعا عن حوزة الإسلام ضد هجمات الروم ومن هؤلاء الشاعر الأحوض الذي يقول :

أبو ان يرقدوا ليلا فهم لله قوام
أبو ان يفطروا دهرا فهم لله صوام
أبو ان يخدموا الدنيا فهم لله خدام [31]

الإحالات

1- ينظر كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية ، ص 74 .
2- محمد المختار العبيدي ، الحياة الأدبية بالقيروان، في عهد الأغالبة، ص.326
3- عبد القادر هني ، مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة ، ص .193
4- ينظر محمد المختار العبيدي، المرجع السابق ،ص 326
5- ينظر ، المرجع نفسه ،ص 326
6- علي بن ابي طالب نهج البلاغة ، ص 168 .
7- محمد المختار العبيدي ، المرجع السابق ، ص 334
8- سورة النساء ، الآية : 78 .
9- سورة آل عمران ، الآية : 185 .
10- بكر بن حماد ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 90 .
11- المصدر نفسه ، ص82 .
12- المصدر نفسه ، ص.76
13- المصدر نفسه ، ص 78-.79
14- العماد الأصفهاني ، الخريدة ، 61./1
15- المصدر نفسه ،62./1
16- ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 232/1 .
17- أبو الفضل يوسف بن النحوي ، المنفرجة ، تحقيق احمد بن محمد أبو رزاق،ص.22
18- سورة النساء ، الآية : 97 .
19- بكر بن حماد ،الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 75
20- سورة البروج ، الآية : 13 .
21- بكر بن حماد ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ، ص 80 .
22- سورة البقرة ، الآية : 166.
23- محمد المختار العبيدي ، المرجع السابق ، ص 350 .
24- عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ص 868.
25- المرجع نفسه ، ص 885 .
26- ابن رشيق القيرواني ، الديوان ، ص 25-.26
27- العماد الأصفهاني ، الخريدة ، 61/1 .
28- المرجع نفسه ، 62./1
29- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ص 852.
30- عبد العزيز نبوي ، محاضرات في الشعر المغربي القديم ، ص 93 .
31- المرجع نفسه ، ص 93 .